الدراسات الحديثة
في المحافظة على التراث

د. بوركبة محمد، جامعة وهران

مقدمة:

التراث بمعناه الواسع، هو ما خلفه السلف للخلف من ماديات ومعنويات أي كان أنواعها، أو بمعنى آخر هو كل ما ورثته الأمة وتركته من إنتاج فكري وتاريخي وحضاري، سواء فيما يتعلق بالإنتاج العلمي والثقافي بالآداب بالصور الحضارية التي ترسم واقع الأمر ومستقبلها[1].

لقد أدركت الدول والمجتمعات في العصر الحديث، أهمية التراث لذلك أولت الأمم الناهضة تراثها عامة، والعلمي منه خاصة اهتماما كبيرا باعتباره ميراث الأجداد. ورأى الجميع أن المتنكر والجاحد لتراثه أو الغافل عنه يصبح بلا هوية حضارية.

فالتراث الحامل للقيم كلها يعطي حياة الأمم والمجتمعات والشعوب طابعا ولونا مميزا، وتكتسب منه أسس بناء الإنسان فيها، ومن ثم يتحدد على أساسها نوع ومجال فكرها الديني والدنيوي الذي تعتنقه.

فما التراث إلا حصيلة ضخمة من التجارب والممارسات بأشكالها المختلفة ومناحيها المتعددة التي بالحياة الفكرية والعلمية والدينية والدنيوية. فهو عميق الجذور في الأمم، لذلك فإنه يمثل عقيدتها وفكرها وعقلها وشخصيتها، بل هو الذي يميز أمة عن غيرها من الأمم، أي أنه ذات الأمة. ولعل أكثر شيء إدراكا في أهمية التراث ووجوب الاهتمام به ودراسته أمرين:

أولا: أنه يربط شخصية الأمة بماضيها ويجعلها بارزة بين الأمم[2].

ثانيا: أنه يكشف أشياء جديدة تستنير بها الأفكار المعاصرة والدراسات الحديثة، بل كثيرا ما يفتح الأذهان منها وتؤدي على ابتكار أشياء جديدة مستندة إلى أصول تاريخية قديمة فيكون لها من التفريعات ما يتناسب مع واقع الأمة وواقع البيئة الجديدة التي يعيشها الإنسان[3]. فإن الدراسات الحديثة التي اهتمت بالتراث العربي الإسلامي والجزائري، انقسمت بدورها إلى قسمين هما:

- **أولا: الدراسات الاستشراقية:**

تناول المستشرقون تراثنا العربي الإسلامي بالكشف والجمع والفهرسة، وعمدوا إلى نشره وتحقيقه وترجمته ودرسته والتصنيف فيه. وقد شملت أبحاثهم مجالات متعددة حيث بدأوا في القرن التاسع عشر بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية، في مختلف بلدان العربية والأوربية والأمريكية. فنشطت هذه الجمعيات في إصدار المؤلفات والمطبوعات المتنوعة والمجلات.

وكثرت الدراسات المتصلة بالإستشراق ونتاجات المستشرقين، وانقسم الباحثون والدارسون المسلمون في مواقفهم إزاء حركة الاستشراق، حيث رأى فيها البعض مؤامرة استعمارية تتوخى السيطرة الغربية على العالم العربي والإسلامي على المستويات الفكرية والثقافية والعلمية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما البعض الآخر فقد قدر واعترف بأعمال ومناهج وأفكار المستشرقين حول دراسة التراث العربي الإسلامي[4]. ونحن إذ يخامرنا نفس الهدف، وهو عدم تبديد الجهود نرى من المفيد ألا نتجاهل هذا التراث الضخم من النصوص والبحوث التي أنتجاها المستشرقون. وفي هذا الصدد يقول نجيب العقيقي:" فإن نحن طوينا هذا الجهد تنكرنا للأمانة العلمية في البحث عن الحقيقة العلمية... فكأننا نأبى أن يكون تراثنا جزءا لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية، وأن طي نشاطهم يبعث على الريبة وسوء الظن والقطيعة، في حين أن الحضارة الإنسانية لا تقوم لها قائمة إلا التعاون في نشر ذخائر كل أمة في العلوم والفنون والآداب على تنوعها وأوجه الشبه والاختلاف فيها"[*].

إن هذه الجهود الاستشراقية تؤكد مدى أهمية وخطورة التراث العلمي الثقافي العربي الإسلامي عامة والجزائري خاصة، الذي لو لم يجدوا فيه نفعا آنيا وإثراء ما بعديا لحضارتهم لم يصرفوا له كل هذه العناية التي تمثلت في جمع المصادر والمخطوطات العربية وصيانتها وفهرستها والتعريف بها ثم تحقيقها ودرستها ونشرها[5].

وقد أنشأوا لذلك المؤسسات الخاصة والعامة والحكومية، وجعلوا للتراث العربي في الدروس الجامعية مكانا خاصا. وتضافرت جهودهم من مختلف جنسياتهم على نشر الموضوعات التراثية وعقد المؤتمرات والملتقيات والندوات العلمية، وإصدار المؤلفات والمجلات ودوائر المعارف. وتوثيق العلاقات بالعلماء والأساتذة العرب في كل مكان[6].

ولكن الحقيقة التي يجب أن تقال: ليس باستطاعة أحد أن يخفي عطاء المدرسة الاستشراقية في ميادين البحث العلمي والأدبي والحضاري، من تأليف وتحقيق ونشر وبحث وتنقيب على كل صغيرة وكبيرة من تراث هذه الأمة الخالدة، وتراثها الذي كاد أن ينسى ويطويه الزمن والنسيان ويتعرض للإهمال والاندثار، لولا جهود أمثال هؤلاء المستشرقين في إخراجه للنور وحمايته من الضياع. نعطي أمثلة على ذلك:

جهود المستشرقين الفرنسيين في الجزائر (1830–1950):

ينبغي على الباحثين والدارسين الوقوف عندها طويلا وهي المتعلقة بجهود المستشرقين تجاه التراث الجزائري العريق، وذلك لما ورد فيها من تغير كثير من المفاهيم حول حيوية الجزائر في مجال الطبع والنشر والدراسة خصوصا جهود أولئك المستشرقين الذين قاموا على أكمل وجه برعاية نواحي كثيرة من التراث الجزائري، مثل تدوين عناوين الفهارس كفهارس الزوايا والمساجد وفهارس الشخصيات العلمية والثقافية، وهو يدل فيما يدل على غنى هذه الأمة وكثرة مخزونها من هذا التراث

العربي الإسلامي المجيد، وعلى كل حال فالجزائر رقعة مهمة في الوطن العربي بما تمتلك من فائض تراثي كبير. ونذكر بعض أعمال معلمة أجزها المستشرقون عن التراث العربي الإسلامي الجزائري[7]:

– مراجع عن الجزائر من حملة شارل الخامس من 1541 إلى 1887م، ظهرت في لندن عام 1887م.

– المجلة الإفريقية تصدر كل ثلاثة اشهر في الجزائر منذ عام 1856م .

– حوليات معهد الدراسات الشرقية بجامعة الجزائر تصدر كل سنة مرة عن باريس منذ عام 1934.

– وثائق ومخطوطات عن الحملات العسكرية إلى الجزائر وتركية وسوريا ومصر مكتبات الحرب باريس 1911م.

– كتاب: "وليم مارسيه"، وهو كتاب ضخم طبع لأول مرة في الجزائر عام 1942م.

– تاريخ الجزائر تحت السيطرة التركية، غرامون صدر في الجزائر عام 1887.

– تاريخ اللغات السامية في الجزائر للمستشرق رينان سنة 1853م، في جزأين يتناول فيهما اللغة العربية مقارنة.

– الكتابات العربية والتركية المتعلقة بالجزائر، ليفي بروفنسال.

– تاريخ ومؤرخي الجزائر صدر في باريس عام 1931.

ولكن تلك الجهود المبذولة ورغم أهميتها، ينبغي ألا تحجب وتمر عنا الصور الأخرى والخلفيات المبيتة والثقافة المسمومة للحركة الاستشراقية التي كانت ولازالت تتماشى وتساير الحركة

الاستعمارية الهدامة. وفي هذا يقول المستشرق رودي باريت:" ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها، المعيار النقدي الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا، وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن"[8].

ومن هنا انطلقت الدراسات العربية الحديثة لأبناء هذه الأمة في بناء وتصحيح الأخطاء، والتفسيرات والتأويلات والقضاء على السموم والمكائد التي دسها بعض المستشرقين وتلقفها تلاميذهم عنهم بقصد أو بدونه، والتصدي لها بمعالجة علمية موضوعية[9].

ثانيا: الدراسات العربية الحديثة:

يمثل التراث العربي الإسلامي الزاد الثقافي والعلمي للأمة العربية والإسلامية على مدى القرون السابقة إلى عصر انتشار الطباعة ودور النشر، وهو تراث متميز أسهم في بناء الحضارة الإنسانية بالدرجة الأولى، ثم الحضارة العربية الإسلامية بالدرجة الثانية، ولذلك كان لابد من الحفاظ عليه، وتيسير الإفادة منه، وتمكين الباحثين والدارسين من الرجوع إليه .

واهتمت الدراسات العربية بالتراث العربي والإسلامي في مجالات العلوم المختلفة، الإنسانية والإسلامية والاجتماعية والأدبية والتاريخية والاقتصادية، قد حظي باهتمام المجتمعات العربية الإسلامية بدرجات متفاوتة ومتباينة لصلتها المتينة والقوية به، وتوفر الدارسين والباحثين والمحققين له بحكم وجوده[10].

ومنه أصبحت الدراسات العربية الحديثة كقضية عملية في سياق المكونات الأساسية للمنظومة الفكرية والثقافية والتراثية العربية الإسلامية، بنصيب وافر من اهتمامات ودراسات، والباحثين على اختلاف اتجاهاتهم ولغاتهم ومستوياتهم وأدواتهم.

إن الدراسات الحديثة في مجال العلوم المتنوعة، كانت العناية بالتراث العربي الإسلامي عامة، والتراث الجزائري خاصة، به كبيرة وكبيرة جدا وهذه الحقيقة لا ينكرها أحدا. ودليل على ذلك ما وصلنا إليه من كتابة ونسخ ونشر وتحقيق وتأليف ودراسة وتنقيب، وكثرة المتخصصين والباحثين والدارسين فيه[11].

وتتوفر بلادنا على تراث ضخم في شتى العلوم والفنون، من المعرفة الإنسانية من فقه وحديث وتفسير وقراءات وفلسفة ومنطق وطب وصيدلة وكيمياء وهندسة وفلك وأدب وتاريخ وسير وتراجم لعلماء جزائريين وغير جزائريين، يتوزع على مختلف المكتبات والخزائن والجامعات في ربوع ولايات الوطن.

وفي هذا الشأن أولت الجزائر في السنوات الأخيرة الاهتمام والتشجيع لهذا الميدان العلمي الدراسي والفكري. وانشغل به عدد هائل من علماء وأساتذة وباحثين وطلبة، فرادى وجماعات ومجموعات في إطار بحث أو دراسة أو نشر أو تحقيق أو تأليف أو تقديم. أو في إطار وحدات بحث مشتركة أو دور الثقافة والمتاحف والمراكز العلمية، وشبكات مخابر البحث في جامعات الوطن الجزائري، أو في إطار المؤتمرات والندوات والملتقيات الوطنية والدولية[12].

ولقد أصبح اهتمام وعمل الدراسات الحديثة يوم منصب ومحصور على ما يلي:

أولا: المكتبات

ومن أبرز المكتبات وأغناها بالمصادر والمراجع والمخطوطات والوثائق والمجلات والمادة العلمية في مختلف ولايات الوطن هي: المكتبة الوطنية بالحامة الجزائر العاصمة، المكتبة المركزية جامعة الجزائر. ومكتبة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالجزائر العاصمة. المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية بوزارة المجاهدين بالجزائر العاصمة. مكتبة متحف أحمد زبانة بمدينة وهران، مكتبة جاك بارغ بمدينة فرندة بولاية تيارت. مكتبة جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية والمكتبة المركزية بجامعة قسنطينة،

مكتبة المركز الثقافي العشعاشي بمدينة تلمسان. ومكتبة المركز الوطني للمخطوطات بمدينة أدرار. والمركز البحوث الصحراوية بمدينة غرداية، والمركز الأرشيف بولاية وهران.

ثانيا:الخزائن

تشكل المخطوطات جزءا هاما من تراث الأمة الجزائرية في خزائن ربوع هذا الوطن شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، مثل الصحراء الكبرى في ولاية أدرار مثل: خزانة زاوية الشيخ محمد بلكبير، وخزانة الشيخ باي بلعالم بأولف. وخزائن ولاية غرداية مثل: خزانة الشيخ مصطفاوي، وخزانة سليمان بن داود بقرارة. وخزانة الشيخ إبراهيم أطفيش بالعطف، وخزائن بني يزقن، وخزائن جمعية التراث بغرداية . خزانة الزاوية القندوسية بولاية بشار. وخزانة الشيخ علي بن عمر بطولقة بولاية بسكرة. وخزانة زاوية الهامل بوسعادة بولاية المسيلة. وخزانة العلامة عبد المجيد بن حبه بالجامعة وادي سوف. وخزانة الشيخ بشير محمودي بالبرج ولاية معسكر، وخزانة الشيخ المهدي البوعبدلي ببطيوة ولاية وهران، وخزانة زاوية سيدي الحسيني ولاية تيارت، وخزانة عين ماضي بولاية الأغواط. وخزانة أولاد سيد الشيخ بلدية السخونة ولاية سعيدة. خزانة زاوية العلوية تجديد ولاية مستغانم، وخزانة زاوية مازونة بولاية غليزان[13]، وغيرها الكثير.

ثالثا: المخابر

تعد الجامعات من أهم مؤسسات المجتمع المعنية بالبحث العلمي حيث يشكل هذا الأخير، المهمة الأساسية بعد مهمة التدريس. وفي الجامعات الجزائرية استحدثت مؤسسات جامعية تعرف بمخابر البحث العلمي في الدراسات والمخطوطات.

وهذه المخابر هي مؤسسات تابعة للجامعة، تهتم بمشاريع البحث العلمي والثقافي في المكتبات والخزائن والأرشيف والمخطوطات، بواسطة أعضاء فرق بحث مختلفة. وهي كذلك تتمتع

بالاستقلالية الإدارية والمادية، تقدم برامجها وحصيلة نشاطاتها إلى مؤسسات الإلحاق التابعة للوزارة. من هذه المخابر على سبيل المثال دون الحصر:

مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران. ومخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط جامعة الجزائر، ومخبر المخطوطات بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ببوزريعة جامعة الجزائر، ومخبر المخطوطات وتحقيق التراث الأدبي واللغوي بالجامعة المركزية جامعة الجزائر ومخبر مخطوطات البحوث والدراسات في حضارة بلاد المغرب بجامعة منتوري المركزية قسنطينة، ومخبر الدراسات الحضارية والفكرية جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، ومخبر مصادر وتراجم بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية قسم التاريخ وعلم الآثار جامعة وهران.

خاتمة:

وفي الأخير نقول: لقد أنقذت الدراسات العربية الحديثة ولو بقدر ضئيل التراث من الضياع والإهمال والعبث في هذه النقاط التالية:

– المساهمة الفعلية من قبل الجميع في إحياء تراثنا المجيد، وذلك ببعث المراكز العلمية والفكرية المتنوعة، التي أدت دورا هاما ورائدا في نشر العلم والفكر والمعرفة منذ مدة طويلة.

– الكشف عن هذا التراث المخطوط والمكتوب والمنشور يوفر سبل البحث لأساتذتنا الكبار ولطلابنا الكرام في مختلف فنون المعرفة الإنسانية.

– مساهمة الدراسات الحديثة بالتعريف والبحث عن أهم المراكز والجامعات والمخابر والخزائن والمكتبات التي يتواجد فيها التراث المورث، وإعداد الفهارس والدراسات والمقالات والمؤلفات له حتى يسهل الوصول والرجوع إليه.

– إبراز الأثر والدور الحضاري والثقافي والعلمي للتراث العربي والجزائري، ووصول به إلى المستوى العالمي المتميز بالبحث والدقة والنظرة الشمولية.

– الاستفادة من تراثنا وعلم الأوائل، لأنه مصدر موثوق في مجال البحث العلمي، ولأنه ذاكرة الأمة وقاعدة الحضارة وأساس الجذور التاريخية.

– التعريف العلمي بالتراث الفكري غير المعروف لدى الآخرين من مصادر ومخطوطات وآثار عمرانية وحضارية.

– الاهتمام بالتقدم العلمي والثقافي للجامعة وتطوير رسالاتها العلمية والحضارية في المجتمع فضلا عن القضايا الوطنية المرتبطة بتحديث المجتمع.

الهوامش:

1. حسين محمد سليمان: التراث العربي الإسلامي، دراسة تاريخية ومقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص :13.

2. حسين محمد : التراث العربي الإسلامي، ص:58.

3. حسين محمد: التراث العربي الإسلامي، ص:59.

4. بشير ضيف بن أبي بكر بن البشير عمر الجزائري: فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، واقع التراث الجزائري الأصيل بين المعلوم والمجهول، مراجعة وتقديم عثمان بدري، الطبعة الأولى 2002م، الجزائر، ص ص:145-146.

5. نجيب العقيقي، المستشرقون الجزء الأول، المقدمة.

6. محمد بن معمر: منهج ليفي بروفنسال الاستشراقي في تحقيق التراث الغرب الإسلامي، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد 07، 1422هـ/2001م، دار الغرب الإسلامي، ص:309.

7. مجلة المخطوطات العلمية، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر، ص:05.

8. عبد العزيز فارح: المنهج الاستشراقي لدراسة السنة النبوية وعلومها، مجلة رسالة المعاهد، مطبعة آنفو – برانت فاس المغرب، ص:03.

9. بشير ضيف بن أبي بكر بن البشير عمر الجزائري: فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، ص:143.

10. بشير ضيف: فهرست معلمة التراث الجزائري، ص:143.

11. مجلة المخطوطات العلمية، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر، ص:05.

12. مجلة المخطوطات العلمية، منشورات مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر، ص:05.

13. جميل عبد الله محمد المصري، دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيوت لبنان، 1411هـ/1991م، ص:10.

14. بشير ضيف: فهرست معلمة التراث الجزائري، من ص:94 إلى ص:97.